١. زفـيـر

إخراج شيء ما ..

على عكس خافيير موظف الطيران المسؤول عن صعود الركاب للطائرة، تملك ليليان المضيفة المتقاعدة صوتًا جهوريًا مُحلى بطريقة كلام مميزة لكل الأمريكيين ذوي الأصول الأفريقية.. صوتٌ قادرٌ على إيقاظ الموتى كما اعتاد زوجها "ريك" أن يخبرها كلما نادت على أي من أولادها الستة. عاش الركاب المنتظرين للطائرة المتجهة من إنديانا لشيكاغو تلك الخبرة المروعة عندما قررت ليليان أن تصرخ فور رؤيتها لصديقتها "ويندي" وسط الركاب أمام بوابة الصعود إلى الطائرة، فانتفض جميع من ينتظرون نداء خافيير ذو الصوت الهادئ الذي لا يمكن سماعه واضحًا حتى بمساعدة مكبر صوت لبدء الصعود للطائرة. حتى "قاسم" ذو النوم الثقيل والذي كان قد غفا بعد ثمان ساعات في انتظار الطائرة و "سيلين" السارحة في ملكوت ذكريات ليلتيها السابقتين انتفضا فزعًا عندما بدأت ليليان سيل لعانتها المعبرة عن شدة فرحتها برؤية صديقتها القديمة.

"يا لك من عاهرة محبوبة.. لم نلتق منذ خمس سنوات عندما كنتُ رئيسة طاقم الضيافة في طائرة نيويورك سان فرانسيسكو.. أتذكرين أيتها الشمطاء.. كنت تكرهين كل السود آنذاك لكنك أحببتني، أحببت بذائتي وأحاديثي غير التقليدية التي تسري الرحلات الطويلة.. أليس كذلك".

هكذا صرخت ليليان بصوت خفت قليلًا بعد سيل الترحيب السابق لكنه ظل كافيًا ليغطي على صوت خافيير الذي نادى على ركاب الدرجة الأولى ورجال الأعمال ومن يحتاجون مساعدة خاصة لبدء الصعود للطائرة. الجميع خرج من دائرة التفاعل مع مرحلة الصعود إلى الطائرة إلى تفاصيل علاقة ليليان بويندي، والتي عرفها كل من تواجد في محيط يبلغ كيلومترا من المحادثة.

"ماذا أفعل هنا..؟؟!! يا للعجب، أنا مضيفة يا عزيزتي، حتى وإن تقاعدت أستطيع التواجد هنا وقتما أريد.."

مزحة ثم ضحكة قضت على الإعلان الثاني لركاب المنطقة (١) و(٢) في الطائرة مما جعل خافيير يترك مكبر الصوت، ويقترب من ليليان - التي بدا أنها تعرفه - ويهمس لها ببضع كلمات،

فضحكت ثم عدلت من حقيبة يدها، وأرسلت له قبلة في الهواء مع إيماءة برأسها..

"حسنا يا طفلي، منزعجين من صوت أمريكا.. هذه يا طفلي هي الطريقة الوحيدة ليعرف الناس أنك هنا.. الصراخ..". ثم التفتت لويندي مرة أخرى "دعكِ منه..! هل أنت على الطاقم..؟ لا يبدو ذلك..! ربما كُنت عند صديقك العجوز في اندي تمارسان حب المتقاعدين..! حسنًا.. أنا مسافرة إلى ديترويت.. يبدوا أن العم ستيفن في طرقه للقاء الرب.. "

لسبب ما التفت خافيير إلى ليليان وشرد قليلًا فلفتت سوزان زميلته انتباهه أنه يجب أن ينادي على المنطقتين (٣) و(٤) لبدء الصعود إلى الطائرة..

"لقد فسدت رئتاه.. سبعون عامًا من التدخين لم يدمروها وعام واحد من التوقف جعله أسير جهاز تنفس صناعي.. الرجل يمتلك رئتان من القطران الذي يجب أن يُسقى بمزيد من الزفت.. لم يصدقني أحد عندما قلت لهم ذلك..! حتى عندما لم يعد جهاز التنفس الصناعي مجديًا. لم يسمعوا لي عندما طلبت منهم أن يعطوه سيجارة كي يتحسن.. عليهم اللعنة، لقد اضطروا في النهاية

لشراء جهاز خاص من بوسطن كي يساعده على إخراج الزفير.. تخيلي..! أصبح الرجل يستطيع إدخال الهواء إلى صدره ولا يستطيع إخراجه إلا بمساعدة جهاز.. الأطباء يقدرون ما بقي له بشهر واحد، ينتهي بعد أسبوع.. أتمنى أن يموت في إجازة نهاية الأسبوع لتتاح لنا فرصة رؤية المدينة..؟

(١)

هل يمكن استنساخ ذلك الجهاز لإخراج أشياء أخرى غير الزفير.. يحتاج قاسم بشدة لذلك قبل أن يعود إلى القاهرة عبر لندن التي سينتظر فيها سبع ساعات تطارده حقيقة ما كان عمله قبيل مغادرته إلى الولايات المتحدة لحضور ذلك المؤتمر.

في كل جلساته مع الجيل الأصغر سنًا، يصر قاسم على قاعدة "القاعدة" وهي أن كل إنسان يبحث عن محور وقاعدة ثابتة يتحرك منها نحو أحداث حياته، ويعود إليها في النهاية.. يمكن لكل إنسان أن يأخذ الوقت الذي يحتاجه كي يقرر هذه القاعدة المكانية أو المهنية. قاعدة قاسم التي اختارها كانت مصر، ولم يخرج منها إلا لتحقيق هدف ما وعاد فور انتهاءه من تحقيق هذا الهدف. اهتزاز القاعدة في عُرف قاسم أمرٌ نادرٌ ويحتاج إلى حدث

مزلزل كالذي مر به قبيل سفرته هذه المرة فكان القشة التي استحضرت أحداثًا أخرى مزلزلة تراكمت على مدار سنوات..

(٢)

حتمًا ستحتاج سيلين لجهاز كجهاز العم ستيفن لنسيان لمسات بول على جسدها لدورات متعددة خلال اليومين السابقين. لم تكن تتوقع ما حدث وما وصل إليه الأمر، كما يحاول عقلها الباطن مساعدتها في تخطي عقدة الذنب الناتجة عما حدث. لكن الحقيقة كانت أنها تهرب من بديهية أن تواجدها لعطلة نهاية أسبوعٍ كاملةٍ مع حبيبها السابق سيفضي بهما إلى الفراش سويًا من جديد. ترددت كثيرا في قبول دعوته لقضاء العطلة في إنديانا ومشاهدة عروض ومباريات الكرة الخارقة **Super Ball** التي تقام هذه السنة في إنديانا مستغلًا أنه سيكون وحيدا بدون زوجته. انتهى العرض لتكتشف أنه لم يقم بحجز فندق لها، ولم تقاوم عندما عرفت أنه في طريقه لمنزله، بل بدأت هي ككل مرة في الاقتراب غير البريء منه بقبلة بعد الكأس الأول، ثم كان ما تسترجعه في كل ثانية منذ أن أوصلها بول إلى المطار..

(٣)

رأى قاسم ووثق مئات حالات الفساد سنوات عمله السابقة في أكبر مؤسسة مالية مانحة في العالم، وخبر الكثير من التعقيدات البيروقراطية التي تنفرد بها مصر والتي لا مبرر لها إلا التغطية على فساد ما.. ساهم طول صبره وتفاؤله الطبيعي بالإضافة لوجاهة وظيفته ومميزاتها المرتبطة بتقبل مثل هذه التجاوزات في اتساع مساحة تحمله لصدمات متباينة وعنيفة في بعض الأحيان.. لكن الصدمة الأخيرة كانت خارج حدود تحمله، خصوصًا أن تمرير طلب ذلك الرجل الذي زاره منذ أسبوعين في سلطة قاسم فقط كممثل للجهة المانحة للقرض الذي يمول مشروعًا عملاقًا تعيد الدولة تدوير خبر البدء في أعماله كل فترة للتباهي بإنجاز لم يبدأ بعد.

طالب الرجل المهيب عبر جهته الرسمية بخمسة وعشرين مليونًا لإزالة مبنىً أُنشئ حديثًا لسبب ما على مسار خط القطار الذي رسمته الجهة التي ينتمي إليها الرجل ذاته قبل إنشاء المبنى بنحو عامين.. حقيقة فجة خلاصتها أن مصدر خريطة مسار طريق القطار أصلًا كان هو نفس المؤسسة التي ينتمي إليها الرجل الذي

يطالب الآن بثمن إزالة ما بنوه عمدًا على مسار هم من رسموه في الأصل.. وعليه هو أن يمرر تلك الحقيقة اعتمادا على مبرر الرجل وجهته الوحيد لطلب المبلغ وهو أن القرض الممنوح للمشروع يغطي ما هو أكثر، فلا مانع من خمسة وعشرين مليونًا لإزالة عقبة في طريق المشروع..

المنطقة (٨) في الطائرة هي حيث ينتمي قاسم الذي نهض فور سماع صوت خافيير الخافت ينادي على منطقته وسار بهدوء متسائلًا.. "هل يوجد نسخة من ذلك الجهاز الذي يستخدمه العم ستيفن لإخراج زفيره لإخراج مثل تلك المواقف..؟"

(٤)

الأمر مفزع بحق.. ولا تدري سيلين كيف يشعر بول بما حدث، وما إن كان يستحضر كل حركة وقبلة واندماج وشبق كان في ليلتيهما كما تفعل هي..؟ هي تعلم أنها قد لا تراه لسنوات، وقد لا يتبقى لها من مرورها في طريقه إلا رجفة انتشاء تمر بها كلما تذكرته في أعماقها حسيًا وجسديًا.. بل يجب عليها أن تتابع صوره مع زوجته ومنشوراتهما التي تمجد حبهما الخالد الذي يمكن أن يكون حقيقًا، وهي تعلم أنها كانت في فراشه بطلبه وإرادتها الحرة

منذ أيام أو شهور، ربما كأداة لتأجيج حبه لزوجته عن طريق نزوة متكررة مع حب قديم، أو لحظة فراغ عاطفي وجنسي يرغب في ملأه بذاتِ شبق تَخرُجُ معه عن كل حدود، أو ربما يتعامل معها كمجرد عاهرة.. طريقة حياته تشي بأن بول لا يعاني أعراض الاستدعاء الذي تعانيه وتحتاج إلى قوى غير بشرية لتتخلص منه، بل يمارس حياته بشكل طبيعي تمامًا كما لو كانت هي حدث عابر.. مثير وممتع، لكنه عابر.

(٥)

وجوده في حالة السفر هو النشاط الوحيد الذي يشعر فيه قاسم باتساق مع ذاته وحياته الخالية من العلاقات الإنسانية تقريبا، فهو لم يتزوج رغم اقترابه من الخمسين، ولم يتبق من أسرته إلا أختٌ تعيش في أمريكا منذ ربع قرن ويراها كل بضع سنوات.. حقيبة صغيرة، رحلات متواصلة مع فترات تحويل رحلات (ترانزيت) تمتد لعشرات الساعات يستمتع فيها بمراقبة نشاطات البشر المختلفة في بلاد مختلفة.. صراخ ليليان كان من الحوارات المتميزة التي عبثت بمنطقة يحاول جاهدًا اسكات غليانها.

في عملٍ سابق حكى له صديقٌ نوبي عن طقوس الأفراح النوبية التي تبدأ فقراتها الحقيقة بعد مغادرة الزوجين إلى المنزل.. حكى عن المغني الذي يتمادى في شرب الحشيش والبيرة لدرجة أن يغني أغنية بينما يعزف مع الفرقة لحنًا لأغنية أخرى.. تلك هي حياة قاسم خارج حدود المطارات، أغنية بديعة شكليًا على لحن بديع لكن لا علاقة لأحدهما بالآخر.. أغنية تدور بين عمله الذي يكره كل أحداثه اليومية لكنه مستمر فيه لدخله الضخم ووضعه الاجتماعي المرموق والأسفار المتعددة التي يتيحها له، وبين أصدقاءه الذين هم مجرد معارف تدور في فلك إما مصالح مشتركة، أو متطلبات مظاهر اجتماعية وعلاقات منفعة حولت تلك المعارف إلى دائرة مقربة نتعامل معه في معظم الأحيان كممول لمظاهر اجتماعية أو وسيلة لتحقيق أحلامهم، وبين سلامٍ نفسي مفقود منذ سنوات لا يتذكرها، سلامٌ لا يشعر به إلا في المطارات وهو على حال سفر..

ربما يحتاج جهازاً كجهاز العم ستيفن ليخرج من نفسه كل تلك الخواطر والذكريات..

- سيدي.. أنت في المنطقة ٨ صحيح ..؟
- نعم
- دورك في صعود الطائرة يا سيدى..

كان هذا خافيير بصوته الهادئ وهو يناول قاسم جواز سفره وبطاقة صعوده الي الطائرة

- هل أنت بخير..؟ سأل قاسم الرجل
- بخير يا سيدي.. أتمنى لك رحلة سعيدة

(٦)

خافيير تابع قاسم الذي سار عبر ممر الصعود إلى الطائرة بهدوء حتى اختفى عن نظره. هل هو بخير..؟ هو أبعد ما يكون عن كونه بخير.. اليوم اكتشفت زوجته سرًا واحدًا من أسراره المتعددة، سر كان كافيًا لأن تطلب الطلاق بدون تردد لأنها لا تستطيع أن تتابع حياتها مع شخص مزدوج الميول الجنسية.. والطلاق في هذه البلاد يعني ما هو أكثر بكثير من مجرد خسران الأشخاص..

صديقه أرنولد وعده بأن يقف معه للنهاية لأنه يحبه بحق، أو يصدق هذا الهراء عن انتصار الحب المختلف، لكن خافيير - والليلة بالذات - على ذكر جهاز إخراج الزفير قرر أن يستعمل جهاز العم ستيفن بشكل تخيلي ليُخرج من أعماقه كل ما يتعلق بما فعله في العامين السابقين تحديدًا، ودمر عشرين عامًا من حياته التي دأب على بنائها..

خلاصة ما خرج من نفسه في البداية أن ثمة شيء مختل هاهنا..

مظهر خافيير الهادئ ونبرته المهذبة ضللا رؤية حقيقة هوس جنسي تنامى على مدار عمره لدرجة أن تخيلاته صارت كالشهيق والزفير، وتخطت كل الحدود لتضع كل من تقع عليه عيناه في مجال هوسه.. لم يكن أمره يَحتملُ أن يُفتضح لأن المرات المتعددة التي خرجت فيها عربدته عن إطار التخيلات كانت في ولايات ودول متباعدة حرص على عدم انتظامها وارتباطها. لم تكن تلك المرات على تعددها وتجدد نوعياتها كافية إلا لتوطد يقينه بأن هناك مزيدًا من مستويات اللذة حاول أن ينالها مع تماديه في البحث عما وراء اللذة التقليدية للجنس الذي أُلِف مألوفهُ. يقينه بأن هناك المزيد جعله يتطلع إليه عبر موضة الحرية

الجديدة الملونة بألوان قوس قزح، فقادته هلاوسه إلي تجربة أولى طالما نفر منها..

لم يتغير الاشمئزاز من التجربة في البداية، ثم ألف غرابتها، فتعود عليها ثم طلبها، ولم يكتشف حقارتها التي سيطرت على نفسه حتى أنسته سكرتها حذره فيما يتعلق بجانبه الشهواني إلا عندما خسر زوجته التي شعرت بتغيره معها في حميم علاقاتهما، فتتبعت ما يخصه حتى أوصلها سجل مشتريات بطاقته الائتمانية إلى وحدة التخزين التي استأجرها منذ عام ونيف وما فيها ومن كان معه فيها وقت أن فاجأته هناك اليوم تحديدا..

(٧)

- هل يمكن أن تقوم بنقل رحلتي إلى الرحلة التالية غدًا هناك أمر بالغ الأهمية يجب ان أنهيه قبل أن أرحل..

أخرج سؤال سيلين خافيير من خواطره، فاستعاد ابتسامته وتناول بطاقة صعودها للطائرة وتلفت حوله ليتأكد أن الجميع قد صعد بالفعل. بضع نقرات على لوحة مفاتيحه ثم ابتسم مرة أخري وقال بصوته الهادئ:

- أنت محظوظةٌ يا سيدتي.. لدينا مقعد في طائرة الثامنة صباحًا ولن يكلفك أكثر من مائة دولار فقط.. سأتم لك الحجز الآن لو كان المبلغ مناسبًا
- لا مشكلة
- حسنا.. أتمني أن يكون الأمر على ما يرام يا سيدتي..
- لا.. ليس على ما يرام.. أحتاج أن أنهي علاقة مسممة.. هذا كل شيء

(٨)

يقينًا.. العلاقة الأكثر تسممًا في حياة قاسم هي عمله.. شعور الذنب القاتل الذي يطارده مع كل تنازل يقدمه كان يورثه احتقارًا لنفسه يفوق ما رآه في عيني موظف الطيران "خافيير" الذي يحمل جبلًا من الهم رآه قاسم واضحًا لدرجة أنه سأله عما به مباشرة. الوضع مع قاسم أكثر تعقيدًا، فما يبقيه في عمله رغم مئات الأدلة التي يجمعها كل يوم هو المال والوجاهة الاجتماعية فقط.. عشرات الملفات والميزانيات الملفقة والتسجيلات الصوتية التي وثقها وأخفاها تشي بأنه لا يختلف كثيرًا عن عاهرة تبيع

جسدها بكثير من الدولارات، وهي حقيقة تحتاج لجهاز زفير عاتٍ لإخراجها من نفسه ليتقبل صورته في المرآة..

(٩)

هل يحب أرنولد..؟ بل هل يحبه أرنولد..؟ على مقياس ما أخرجه جهاز زفير العمل ستيفن من نفسه، كل هذا هراء يستغل موضة سارية ليؤصل لمجرد رغبة في خطوة إضافية في سلم اللذة الذي لا ينتهى.. المتشابهات تتنافر في العادة، قد تحتاج لقوة غير منطقية وغير نقية لجعلها تتجاذب ثم تتراكب، لكنها تظل حالة مؤقتة تتحدى طبيعة أو - بالنسبة للمؤمنين - قانون الخالق الذي لا يرحم.. هكذا تعلم في الفيزياء، وهكذا أثبتت له تجربته التي دمرت حياته الطبيعية التي بدأ يشتاق إليها بعد بضع ساعات من فقدانها رغم أنه لم يُقدّر قيمتها يومًا.. قد يستطيع جهاز العم ستيفن إخراج حنينه لحياته الطبيعية وندمه على ما كان فيتمكن من التعايش مع علاقته بأرنولد ومستمرًا في مقاومة الفيزياء الطبيعية للأجساد، أو قد يُخرج الجهاز ذكرياتِ جانبه المظلم وما جره إليه، وربما يمحو ما رأته "باربرا" زوجته كي يتمكن من العودة إليها كما كان.. من المؤكد أن مخترعي الجهاز يستطيعون

تطويره ليحل هذا الأمر، المشكلة أن ليليان قد مضت للحاق بطائرتها ولم يعد من الممكن سؤالها عن تلك التفاصيل التقنية.. خواطر هزلية ساقت ابتسامة مريرة إلى شفتيه وهو يلملم أوراق الطائرة المغادرة ليسلمها إلى إدارة المطار وينال بعض الراحة ثم يلحق برحلته التالية التي سيُسكن ركابها.

(١٠)

شخص آخر يسيطر الآن على تصرفات قاسم الذي طلب باقة اتصال بشبكة **Internet** على الطائرة وكتب بريدًا إلكترونيًا طويلًا عن كل ما يعرف، وأرفق به نسخًا إلكترونية من كثير من المستندات، ثم أرسله إلي صديقه العزيز في وكالة أنباء شهيرة سيسيل لعابها بالتأكيد لنشر قنبلة كتلك، خاصة أن تلك المنصة الإعلامية تناصب مصر العداء صراحة. بريد آخر لـ"دانيش" مديره المباشر في الجهة المانحة للقرض الممول للمشروع يحمل استقالته في رسالة طويلة ختمها بملاحظة ذكر أنها شخصية: "لازلت أذكر تلك النظرة العبقرية التي نظرت إليّ بها في أول اجتماع لنا سويا في أول أيام عملي.. نظرة لا تصدر إلا من ممثل تخضرم في الأدوار المبتذلة. يومها تساءلتُ أنا عن مرجعية الهراء

الذي كنت تهذي به في عقد العمل وسياسة القرض..؟ صدقني.. لا يستطيع أعتى الممثلين في أحقر أفلام المقاولات الرخيصة أن يجمع الحيرة والمفاجأة والصدمة والاستنكار والاشمئزاز والكبر في نظرة كالتي وجهتها إليّ.. نظرة فهمت بعدها أنها من المكونات الرئيسية لأي لص يحاول أن يغلف سرقاته بغلاف احترافي. الحقيقة أيها اللقيط أنكم رغم بدلاتكم الفاخرة وسياراتكم الفارهة مجرد لصوص تستحقون الفضيحة التي لن أكون هناك لأراكم فيها وأسجل نظراتكم الحقيقة وقتها، ربما أكون في السجن أو مقتولًا أو أقضي حياتي مسافرًا بلا هدف وهو الحل المثالي بالنسبة لي حاليًا..." ثم زر الإرسال، فالاسترخاء في مقعده مستمتعًا بصورة المعبد المنهار على رؤوس الجميع.

(١١)

طريق طويل مواز لخط قطار البضائع، ثم الدخول إلى الطريق السريع مرورًا بملعب الجولف المركزي، يمينًا ثم يسارًا فطريق آخر طويل عبر الكثير من المسطحات الخضراء حتى الشارع رقم ٧٤ حيث يعيش بول. شكرت سائق أوبر Uber، ثم ترجلت عن

السيارة عازمة على إنهاء ذلك الهراء الذي داومت على دفع ثمن الاستمرار فيه بكل جزء من جسدها لسنوات عديدة.. طرقت الباب بعنف وهي تعلم يقينًا أنه لن يبدي أي ندم أو حزن على قرارها. دقائق معدودة مرت قبل أن يفتح بول الباب وعلى وجهه آثار النوم ليتفاجأ بها أمامه تدفعه بقوة وتغلق الباب ثم تغيب في شفتيه بقبلة تختلف عن أي قبلة سابقة..!!

(الختام)

هناك قبلة لن تنساها ليليان أبدا مهما حاولت.. تلك التي كانت من "ريك" منذ أسبوعين، قبلة ذكرتها ببداية حياتهما قبل الزواج.. قضت ليليان الرحلة بالكامل تتخيل تلك القبلة من أكثر من زاوية واستمتعت بكل لحظة حتى أنها تمنت أن تمتد الرحلة القصيرة لبعض الوقت. أوحى لها الأمر تستغل نصيبها من إرث عمها ستيفن لقضاء إجازة في بورتوريكو مع "ريك" يستعيدان فيها سنوات الجنون الأولى. هبطت طائرة ليليان لتكتشف عشر مكالمات هاتفيه فاتتها من منزل العم ستيفن، المحتوى لا يحتاج الي توضيح لكنها اتصلت على رقم ابنة عمها لتسمع ما توقعته:

- ليليان.. لقد مات..!

صراخ مليسا الذي تردد في مطار إنديانا على بعد مئات الأميال كان مختلفًا، فصوتها أقل حدة وأكثر رقة من ليليان، لكن صراخها لم يكن مفتعلًا كصراخ ليليان عندما عرفت خبر موت عمها.. صرخ مليسا رعبًا لأنها رأت مشهدًا لن تنساه بسهولة عندما فتحت حمام غرفة استراحة طاقم الطائرة العالق عنوة بحثا عن خافيير الذي قرر أن ينهي الأمر بأكثر الطرق بساطة ومباشرة.. لم تعلم مليسا بأمر قراره إلا عندما تأخر عن الحضور لبوابة المغادرة ولم يُجب عن مكالماتها المتتابعة رغم أنها رأته منذ لحظات يدخل إلى حمام غرفة الاستراحة الخاصة بأطقم الطائرات حيث وجدت جثته الغارقة في دماء شرايينه المقطوعة..

تمت ...